الدرس الخامس / تجريد التوحيد المفيد للمقريزي

قراءة الطالب: الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وعلى آله وأصحابه أجمعين أما بعد:

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

"وقد علّم الله ﷻ عبادة كيف مباينة الشرك في توحيد الإلهية، وأنه تعالى [حقيق] بإفراده ولياً وحَكَما وربا فقال تعالى: {قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} وقال: {أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً}، وقال: {قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا} فلا وليَّ، ولا حَكم، ولا ربَّ إلا الله الذى من عَدَل به غيره فقد أشرك في ألوهيته، ولو وحَّد ربوبيته، فتوحيد الربوبية هو الذى اجتمعت فيه الخلائق مؤمنها وكافرها، وتوحيد الألوهية مفرق الطرق بين المؤمنين والمشركين؛ ولهذا كانت كلمة الإسلام :لا إله إلا الله، فلو قال :لا ربّ إلا الله، لما أجزأه عند المحققين، فتوحيد الألوهية هو المطلوب من العباد؛ ولهذا كان أصل الله :الإله، كما هو قول سيبويه، وهو الصحيح، وهو قول جمهور أصحابه إلا من شذ منهم".

الشيخ -حفظه الله-: إنّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضل له، ومن يُضلل فلا هاديَ له، وأشهد أنّ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله أما بعد:

فمن المعلوم أن الناس بالجملة كانوا قبل بعثة نبينا محمد ﷺ يؤمنون بأن الله ﷿ هو الخالق، وهو المحيي، وهو المميت، وهو الرازق، وهذا توحيد الله تعالى في أفعاله هو، ولذا قال أهل العلم:

"أن توحيد الربوبية أمر مقرر في الجاهلية سوى شُذاذ كانوا ينكرون الله ﷻ وهم ملحدون"، الذين قال الله ﷻ عنهم: {وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ}، هذا الإنسان عنده طغيان، وعنده غرور، وعنده كبر، وإذا لم يوجد دين يهذبه ويقيده يطغى ويتجرأ، حتى إنه يصل بطغيانه وإعجابه بعقله إلى إنكار الله ﷻ، وذكر لنا ربنا تعالى، فرعون وموسى عليه السلام، لما التقى بفرعون قال له:{قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا}، " المثبور": هو الهالك المصروف عن الخير، بسبب هذا الجرم ستهلك، وأنت مصروف عن الخير، سبحان الله !، يتعجب الإنسان لما يتأمل، وينظر إلى طغيان العقل ، أنظروا إلى فريق زعموا أن الله جل في علاه حلَّ في العالم، أصحاب الحلول والاتحاد ، وزعموا أن كل ما تراه هو الله، حتى أن بعضهم تجرأ على بعض الأنبياء في إنكارهم على أقوالهم في عبادة الأصنام، قالوا: هؤلاء يعبدون الله الذي في الصنم، تأمل هذا الطغيان، وتأمل طغيان الماركسيِّين الذين يؤمنون بالمادة، ما الفرق بين من يقول أن الله قد حلَّ في الكون، وبين الماركسي الذي يقول أنا لا أؤمن إلا بما أراه؟! المآل واحد، والمذهب واحد، وإن كان هؤلاء أصحاب وحدة الوجود يتذرَّعون بآيات، ولكنه طغيان وهوى، وما وَرثوه من الأخلاق عمن قبلهم ممن يعظِّمون، هؤلاء الملحدون يُظهرون الإلحاد لكن الله تعالى الذي خلقهم هو أعلم بهم، فأخبرنا الله تعالى عنهم بقوله: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا} هذا فيه عدم إيمان بذات الله، هل يجوز أن نقول عن الله ذات؟ يا طلبة العلم !، يا طلبة الحديث!، يا طلبة الدليل!، ثبت في البخاري أن النبي ﷺ قال:" وَلَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ غَيْرَ ثَلَاثَ كَذَبَاتٍ ، ثِنْتَيْنِ فِي ذَاتِ الله"، لذا لله ذات سبحانه وتعالى.

المشركون الذين بُعث إليهم نبينا ﷺ يوجد فيهم صنف من هؤلاء الشذاذ، سيأتي الشارح لاحقاً ويعرّج عليهم، وهم قلّة، وأما الأغلب فهم يؤمنون بتوحيد الربوبية، بتوحيد الله تعالى في أفعاله، أما أفعالهم فلا، فقد استكبروا، آدم عليه السلام نهاه الله تعالى أن يأكل من الشجرة، وإبليس أمره الله تعالى بالسجود، وكلٌّ عصى، فكان مآل إبليس غير مآل آدم، بعض الذين يعمدون إلى تكفير الخلق بالمعاصي، يقولون الله تعالى أمر إبليس بالسجود فلم يسجد، فكفر، هل هذا الكلام صحيح؟ ليس بصحيح على هذا الإطلاق، أو هذا التوظيف لهذا الكلام ليس بصحيح، بل قل أن آدم نهاه الله أن يأكل من الشجرة فأكل فما كفر، لكن إبليس أبى واستكبر، فَكُفر إبليس إباء واستكبار، وليس لعدم السجود بمجرده، وتَبع أكل آدم من الشجرة الندم والتوبة، فتاب الله عليه، فالطغيان والتقديم بين أحكام الشرع، والاعتداء على قال الله قال رسول الله، داء خطير، ولا أظن صاحبه سالم لا في دينه ولا في دنياه، ونقول كما قال موسى لفرعون :{وإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا}، الذي يقدم الكبر، والعلو، والاستكبار، على النصوص الشرعية حاله خطير. الكفار جملة آمنوا بتوحيد الربوبية، ولكنهم ما آمنوا بتوحيد الألوهية، والسبب ذكره الله تعالى: حيث قال: {كانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۞ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ}، واتهموا النبي ﷺ بأنه شاعر مجنون، وما تابعوا الأنبياء استكبارا وعلوا، ووصل بهم الحال كما قال الله عز وجل لقريش الذين يؤمنون بتوحيد الربوبية: {تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۞ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ}، الكفار كانوا يسوُّون الأصنام برب العالمين، كيف تُسوي كفار قريش الأصنام بالله رب العالمين؟!، هم يؤمنون بأن الله الخالق، وأن الله الرازق، فهم لا يسوُّون الله تعالى في أنه خالق، وأنه رازق، وأنه محيي، {إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ}، في توحيد الألوهية وفي توحيد المحبة، فهؤلاء يسوُّو أصنامهم بالله عز وجل، ولذا الشرع حسم الأمر، وكان حسمُه شديدا، حتى

المساواة بالألفاظ في الشرع ممنوع، لما سمع النبي ﷺ رجلاً يقول له -وهو صحابي موحد-: "ما شاء الله وشئت يا رسول الله"، ماذا قال له النبي ﷺ ؟ أجعلتني لله ندا؟!، لما سمع النبي ﷺ خطيباً، انتبه لقول الخطيب، قال: "من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى" فقال له النبي ﷺ: "بئس الخطيب أنت"، لماذا قال له بئس الخطيب أنت؟ أصاب في قوله: "من يطع الله ورسوله فقد رشد "، وأما قوله: "ومن يعصهما فقد غوى"، ما أصاب ، قال: "بئس الخطيب أنت"، وهذه المسألة لها ذيول وعليها كلام، لكن أحببت أن أقول أن النبي ﷺ حسم المساواة بين الله وبين عباده حتى باللفظ، وجعل النبي ﷺ من ساواها مع الله في قوله: " أجعلتني لله ندا"، الذي يريد أن يقوله المصنف في الكلام الذي سمعتموه، أن الله عز وجل حقيق بإفراده سبحانه على أنه رب،{ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا}، ويترتب على هذا أن الله جل في علاه هو الرب، هو الحكم، وهو حقيق بإفراده بأنه سبحانه وتعالى حكم، فقال عز وجل: { قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا}، {أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا}، فهو حكم سبحانه وتعالى، فهو الذي يحكم بين الخلق كلهم، {وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}، فهو الحكم، والنبي ﷺ مُبلغ ما يحبه الله ويرضاه، هل النبي مجتهد؟ مجتهد في شؤون الدنيا، وترتيب الجيش، وترتيب سياسة الأمة، لكن التحليل والتحريم بيد من؟ بيد الله سبحانه وتعالى، فهو الحكم، والحكم حقيق بأن يكون الولي، وأن يكون الناصر، ولذا قال الله عز وجل : {قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} فالله هو الحكم، هو الولي، {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ}، فالله الوكيل.

تأمل معي ! الله هو الرب، الله هو الحكم، والله هو الناصر، فحينئذ هذا كله مستلزمات لئلا يتوجه القلب إلا إلى الله بالانكسار، والذل، والخضوع، والعبادة له سبحانه وتعالى ، هذا ذُكر كله تأكيداً

لتحقيق توحيد الألوهية، فكل عاقل يتدبر ما ذكر الله تعالى من مقدمات، أنه رب، وحَكم، وولي، وناصر، فما ينبغي أن يتوجه في عبادته إلا له، لذا قال المؤلف -رحمه الله-: " قد اجتمعت جميع الخلائق مؤمنهم وكافرهم في أن الله ﷻ خالق في توحيد الربوبية"، إذن توحيد الربوبية مع الشرك يجتمعان، وتوحيد الألوهية مع الشرك لا يجتمعان، وهو المعني بقول الله تعالى في سورة يوسف: {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ}، هو يؤمن بالله ومشرك، ولذا المطلوب من العباد وهو أول واجب على كل مكلّف ليس النظر، الله خلق الناس على فطرة سوية، وهذه الفطرة إن ترُكت تقود صاحبها إلى التوحيد، والمؤثرات كالأبوين يُنصِّران ويمجِّسان، ويجعلان الإنسان بعيداً عن التوحيد، أما إن تُرك الإنسان على فطرته فهو موحد ، إذن ما هو الكفر؟ الكفر تغطية الفطرة التي فطر الله ﷻ الناس عليها، ولذا كان أول واجب على العباد توحيد الله ﷻ، ليس النظر، ولا الفلسفة.

درّسنا بعض الأساتذة درسوا في الأزهر ودرسوا العقيدة الأشعرية، قالوا: أول دروس التوحيد يزرع الشك في قلبك، يقولون: أول شيء يجب عليك النظر، وينسون الفطرة في أن الله ﷻ خلق الناس على فطرة سوية صحيحة، قال: والله أني للآن، وأنا أستاذ في الشريعة أعاني من الشك الذي نشأت عليه على العقيدة التي تلقيتها، من أنّ أوّل ما ينبغي على المكلّف أن يرفع الشك الذي في نفسه، من أين أتيتم بهذا ؟! الله ﷻ، والنبي ﷺ أخبرنا أن نعود للفطرة، فإذا حادَ الناس عن توحيد الأنبياء، وقعوا في ضلال مبين، وخسران عظيم، اسمع ! ماذا يقول الله ﷻ لنبيه، وهذا الكلام قاله الله تعالى لنبيه محمد ﷺ، وأفضل من خلق الله ﷻ محمد ﷺ، بعد محمد من؟ إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، ثم نوح، هذا الذي عرفناه، الله يقول للنبي ﷺ: { وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ}، الخطاب لمن؟

لمحمد ﷺ ، {وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ}، أي: الأنبياء جميعاً، موضوع التوحيد أمره خطير، تُعرف الأشياء بأضادها، إذا أردت أن تعرف التوحيد وأن تعرف أهمية التوحيد أنظر للشرك، فالمشركون هم شر الخلق، {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ۞ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ }، المؤمن الموحد خير البرية، حتى قال بعض أهل العلم "خير البرية": خير من الملائكة، والتفضيل بين الموحد والملائكة فيه تفصيل، جنس الملائكة أفضل من جنس البشر، كما ثبت في صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: قال الله تعالى: "أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم" فالملأ خير من الملأ، والشخص أحسن من أشخاص الملائكة، قد يصل العبد كالأنبياء الذين اصطفاهم الله واختارهم أن يكون أفضل من الملائكة، فعنوان الموحد يقول: "لا إله" هذا نفي، ولا، نافية للجنس ، فالموحد لا يكون موحداً حتى ينفي ثم يثبت، ينفي الألوهية عن كل شيء، ثم يحصرها بقوله: "لا إله إلا الله ".

تعرض المصنف لمسألة جميلة فيما سمعته لو أن واحدا بدل ما يقول "لا إله إلا الله" قال: "لا رب إلا الله"، من قال: "لا رب إلا الله" قوله هذا لا يستلزم أنه قد خرج عن دين المشركين، فهو ليس بموحد، المشركون لو قلت لهم: "لا رب إلا الله" فَهِم ذلك، "لا رب إلا الله" أمره سهل ،ما دام أنهم عرفوا توحيد الربوبية، فهم يقولون "لا رب إلا الله"، لكن هم يفهمون تبعات "لا إله إلا الله"، فما استجابوا لرسول الله ﷺ، ومن استجاب له فقال: "لا إله إلا الله" أدى هذه التبعات، وأدى حق هذه الكلمة، فإذن توحيد الألوهية هو الذي بُعثت به الأنبياء، و"لا إله إلا الله" هي العروة الوثقى، تأمل معي قول الله ﷻ: {فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى}، الطاغوت: كل ما يعبد من دون الله، العروة الوثقى: "لا إله إلا الله" و"لا إله

إلا الله" هي كلمة التقوى، قال الله ﷻ: {وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا} فكلمة التقوى هي كلمة "لا إله إلا الله"، لذا الله ﷻ أخبرنا في كتابه، أن جميع الأنبياء الذين بعثهم، إنما بعثهم حتى يقولوا للناس "لا إله إلا الله"، ليس فقط أن يقولوها بل أن يعبدوا الله تعالى، قال الله ﷻ:{وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ}، فكل الأنبياء بعثهم الله تعالى بقولهم :"لا إله إلا الله"، ولذا لو قرأت القرآن، ولا سيما القصص التي ذكرها الله تعالى في كتابه، تجد أن جميع الأنبياء قالوا لأقوامهم: {قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ }، ولذا ذكرت لإخواني الحضور، أن يتتبعوا ذكر الله، وذكر الرب في الآيات ويذكرون الفوائد، متى يُذكر الرب، ومتى يُذكر الإله، هذا واضح جداً في وضع الكلمة في مكانها ويستساغ المعنى الذي فيه ألا تصرف أنواع العبادات إلا لله ﷻ، ثم ذكر المصنف كلمة الله التي عليها مدار توحيد الألوهية، وهل كلمة الله كلمة جامدة أم أنها مشتقة ؟ ، وذُكر أن جماهير النحويين وغيرهم يقولون: أن كلمة الله كلمة مشتقة ونُسب هذا القول إلى سيبويه وهو إمام من أئمة اللغة، إلا عدد قليل ممن خالفهم، ولو أردنا أن نسترسل في الاشتقاق لاحتجنا لكلام طويل، وأقتصر على ما يلزم وعلى المهم في درسنا، الذي عليه الكافة من سائر العلماء، سواء كانوا في اللغة أو غيرها أن الله اسم مشتق، واشتق اسم الله إما من الوَله، والوَله: من المحبة، وإما من الإله، والإله: التي تؤول إليه الأشياء، {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۞اللَّهُ الصَّمَدُ }، الصمد: السيد الذي تؤول وتصمد إليه الأشياء، الكفار لأنهم غطوا الفطرة، وفي وقت الضيق والشدة يفزعون إلى الله، لأن الله الذي خلقهم، ولكن في وقت الرفاهية والسعة يتكبرون، عندهم كِبر وعندهم طغيان، أما الموحد حاله مع الله: يارب أنت السيد وأنا العبد، أنت الخالق، وأنا المخلوق، أنت القادر وأنا العاجز، فالموحد يعرف قدر نفسه، ولذا الله جل في علاه من الإله

الذي تُرفع إليه الأشياء، يُتضرع إليه، يُفزع إليه، والله القادر يُري الناس عجائب قدرته، ليس الحال عنا ببعيد،كورونا، خافوا الناس وهلعوا، ووصل الهلع القلوب، وحَبس الناس أنفسهم في البيوت، وخافوا أن يخرجوا، أما في الزلازل تَرك الناس البيوت، وخرجوا منها، وهربوا منها، فالله ﷻ قادر يرُي الناس عجائب قدرته، تارةً يدخلون بيوتهم، تارةً يخرجون، وكما قال الله ﷻ {فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ }،كل شيء تخافه تهرب منه إلا الله، فإنك إن خفته هربت إليه، فزعت إليه، لجأت إليه، فقالوا: الإله الذي يُفزع إليه، أو الإله من التأله وهو المحبة، ولذا كانت العبادة مدارها على أمرين عجيبين: على ذل، وعلى محبة، العابد يفزع إلى الله ويعبده سبحانه بذل ومحبة؛ فهذه هي حقيقة العبادة، وهذه هي حقيقة العلاقة الصحيحة الشرعية بين المخلوق والخالق، بين المربوب والرب، أن تكون ذليلاً محباً، تعبد الله بحب، هذه العبادة الحقيقية، فإذن هناك تلازم بين الرب وبين الإله، والفطرة هي الكاشفة، والشدة والاضطرار، هو السبب الذي يكشف الأمور على حقائقها، هذا القول الكافة لأهل العلم، قالوا: كلمة الله مشتقة، ويشتق من المحبوب أو المعبود، وهل يوجد قول آخر؟ نعم يوجد قول آخر قال به: الخليل بن أحمد من النحويين، وقال به: الإمام الشافعي، وقال به الخطابي، وقال به جمع من العلماء، قالوا: "الله اسم جامد وليس هو مشتق، فالله يجري مجرى أسماء الأعلام، والله جل في علاه لا نظير له، فقد تفرد الله ﷻ بهذا الاسم الجامد، يجري مجرى أسماء الناس، فهذا الاسم يطلق على الله ﷻ، وهو اسم لجميع أسمائه وصفاته، وهو اسم جامد، وليس بمشتق، تفرّد به، ولا يجوز أن يطلق على أحد اسم: الله إلا الله ﷻ ، فهو تفرد به، ثم الله جل في علاه –سبحانه–، هو المحبوب، اعمل ذهنك وتفكر معي، نتكلم عن البشر، المعايير التي تحب بها، لو عملنا استقراء بين الخلق كلهم من تحبون؟ نتكلم عن البشر الآن حتى نعلم أن الله جل في علاه هو الذي ينبغي

أن يكون المحبوب الأول، وينبغي أن يكون كل حب نابع لحبه ﷻ ، من تحب؟ سنجد أناس يقولون: أحب الإنسان العالم، الفاضل، العابد، الذي يتصف بصفات حسنة، هؤلاء أصحاب النفوس الشريفة، والطيبة يقولون هذا، شخص آخر من تحب؟ قال: أنا أحب الذي ينفعني، أكثر، والذي يعطيني أحبه، بغض النظر عن حاله، واحد ثالث مرهف الحس، خصوصاً ممن يميل للنساء، فيقول أنا أحب الجمال، هل هناك معايير غير هذا في الحب؟ لا يوجد، إما أنه يستحق بصفات هي فيه، وإما أنه يستحق الحب لأنه أحسن إليك، وإما أنه جميل، هذه المعايير الثلاثة فانظر إلى حبك لله ﷻ ، وينبغي أن يكون حبه هو الأول، هو المسيطر على كل حب، من المتصف بصفات الجلال، والجمال، والكمال إلا الله !، الذي لا يلحقه نقص ولا عيب إلا الله !، من الذي أحسن اليك؟! فخلقك، ورزقك، وعدلك، وجعلك ترأف، الله !، ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: "إن الله جميل يحب الجمال"، وأعظم نعمة لأهل الجنة كما في حديث صهيب في صحيح مسلم، هي رؤية وجه الله، نسأل الله لا يحرمنا رؤيته، فإذا أنت تأملت أسباب المحبة، وجدت أن الله جل في علاه، هو الذي ينبغي أن يكون المحبوب، والعبادة لا تصرف إلا إليه، وهنالك قسم كبير في الكتاب يتحدث عن العبادة وصرفها لله ﷻ، فإذن الله ﷻ هو المألوه بمعنى المحبوب، أو بمعنى المعبود، وجماهير النحويين وغيرهم يقولون أن الله مشتق من الوله أو من الإله.

يتدرج معنا المصنف –رحمه الله– إلى إلزامات وهذه الإلزامات مذكورة في كثير من الآيات، وأدنى من كان صادقاً في توحيد الله في ربوبيته، ينبغي أن يصل به الصدق إلى توحيد الله تعالى في ألوهيته، سنقرأ الكلام ونسمع بعض الآيات وأنا أدعوكم وأنتم تتلون وردكم اليومي من القرآن، أن تتأملوا هذه المسألة كثيرا، المبثوثة في كلام الله ﷻ ، وينبغي أن نفهم ونحن نقرأ، لماذا قال الله

ﷻ هذا، لكن هنا مقدمة لا بد أن أذكرها وهي مهمة ومهمة للغاية، كل الأسئلة التي في القرآن، التي فيها تقرير الكافرين بأن الله الذي فعل كذا وكذا، وهو الذي سميناه توحيد الربوبية، كل هذه الأسئلة، إنما هي استفهامات تقرير لا إنكار، إياك أن تقول هذا الاستفهام استفهام استنكاري، وإنما هو استفهام تقريري، الله يقررهم، فلمّا يُقرون أن الله ربهم وكانوا مشركين، فيأتي التوبيخ، ويوبخهم الله ﷻ، وهذا الإعجاز البياني بعد التوبيخ لتوجيههم، يحتاج هذا لتطويل ولسنا بصدد التوجيه لماذا قال الله كذا ولم يقل كذا في بعض الآيات، لكن الذي أريد أن أقرره، أن الله ﷻ استفهم، وهذا الاستفهام ليس استفهام إنكار، وإنما استفهام تقرير، فلمّا يقرره يأتي بعدها التوبيخ، لأنهم أقروا لله بالربوبية، ومظاهر الربوبية، ونفوا عن الله ﷻ العبودية، فاعترافهم بتوحيد الربوبية أمر محمود، لكن منعت موانع، وأهم الموانع، الاستكبار.

قاتل الله العقل مع الإلحاد، ورضي الله عن الغباء، والبلاهة، والبلادة مع الإيمان، هذه كلمة الإمام الذهبي ترجم لابن الراوندي وكان ذكياً من أذكياء العالم، فقال: "قلت قاتل الله الذكاء مع الإلحاد، ورضي الله عن الغباء، والبلادة مع الإيمان"، فطغيان العقل هو الذي أوصل المشركين إلى ما هو عليه، فهم جعلوا لله الخلق، ولم يجعلوا له الأمر.

قراءة الطالب: قال المصنف –رحمه الله– وبهذا الاعتبار الذي قررنا به الإله وأنه المحبوب، لاجتماع صفات الكمال فيه، كان الله هو الاسم الجامع لجميع معاني الأسماء الحسنى والصفات العليا، وهو الذي ينكره المشركون، ويحتج الرب ﷻ عليهم بتوحيدهم ربوبيته على توحيد ألوهيته كما قال الله ﷻ: {قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۞ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ

حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۞ أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۞ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۞ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُون ۞ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}. وكلما ذكر تعالى من آياته جملة من الجمل، قال عقبيها {أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ}، فأبان ﷻ بذلك أن المشركين إنما كانوا يتوقفون في إثبات توحيد الألوهية، لا الربوبية، على أن منهم من أشرك في ربوبية كما يأتي بعد ذلك إن شاء الله تعالى، وبالجملة فهو تعالى يحتج على مُنكري الإلهية بإثباتهم الربوبية.:

الشيخ –حفظه الله–: توحيد الربوبية كيف نلقاه؟ حتى نقول فلان ليس موحد توحيد ربوبية، هل الملحد عنده توحيد الربوبية ؟ ليس عنده، المثلِّث؟! لا ، المثنوي –المجوس– الذين يعتقدون إلهين إله خير، وإله شر؟ لا، لذا ورد في الحديث المرفوع أو الموقوف، ولنا عليه كلام بعد الدرس القادم، القدرية مجوس هذه الأمة، المجوس الذين يؤمنون بإلهين، والقدرية الذين يؤمنون بأن الشر ليس من الله، الشر يصنعه الإنسان، فقال النبي ﷺ أو قال ابن عباس: القدرية مجوس هذه الأمة"، ماذا يعني مجوس هذه الأمة ؟ أنهم يؤمنون بإلهين، فهل القدرية عندهم توحيد الربوبية؟ لا، هل النصارى عندهم توحيد الربوبية ؟ لا، النصارى أصلا ما عندهم توحيد ربوبية، النصرانية كم إله عندهم؟ ثلاثة آلهة !!، "واحد نصراني انشغل بأعرابي، والأعرابي ذكي لكن ماعنده علم، فبدأ يقول له الله ثلاثة ! قال له الأعرابي هو واحد، كيف ثلاث ؟ قال له النصراني: أعطني

عباءتك، فخلع عباءته، فطوى له العباءة ثلاث طيات، قال: انظر بقى كم واحد؟ قال له واحد قال هذه ثلاثة!!، قال له الأعرابي: إذا كان ثلاثة فهذا دين أعوج"، فهؤلاء كلهم ليسوا موحدين توحيد ربوبية، الموحد الذي يقول الله واحد، الله رازق، الله محيي، الله مميت، ولكن في العبادة يعبد غيره، وهذا موحد توحيد الربوبية وليس موحد توحيد الألوهية، ولذا الله جل في علاه قرّر في كثير من الآيات، وهذه الآيات التي قرأناها من سورة النمل، قرّر المشركين بأشياء ثم وبخهم عليها، قررهم بخلق السماوات والأرض، فاعترفوا أن خلق السماوات والأرض من الله، قرّرهم بنزول الماء من السماء، فاعترفوا بأن نزول الماء من السماء من الله ﷻ ، قرّرهم بأنه جعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسي، وجعل بين البحرين حاجز، وأنه يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء، وأنه يرسل الريح بشرا بين يدي رحمته، فاعترفوا بذلك، وكذلك اعترفوا بأن الله ﷻ هو الذي بدأ خلقه، وهو الذي يعيدهم، الله يبدأ خلقك، والله يعيدك، ثم الله لا يقدر على أن يبعثك !!! ولا يحاسبك !!، فالله جل في علاه قرّرهم بهذه الأشياء كلها، وفي كل مرة يقولون الله الله، إذن قلنا الاستفهام المذكور في هذه التقريرات ما نوعه؟ استفهام تقريري، وليس استنكارياً، هم لا ينكرون، هم يقرِّون بقولهم الله، ثم بعد ذلك الله جل في علاه وبخهم توبيخاً شديداً.

من الآيات التي تلوناها آيات كثيرة في هذا الباب، {قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ} ، وليس بحاجة إلى من يحميه، ويجيره، هو يحمي الخلق كلهم، يقول: {سَيَقُولُونَ لِلَّهِ}، أقروا بذلك، وبخهم منكراً عليهم، فقال: {قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ}، أنّا تصرفون عن الحق، عن عبادة الله ﷻ الحقة، {قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ}، فلمّا صح الاعتراف به وبخهم منكراً عليهم، فقال الله ﷻ: {قُلْ

أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا}، أقروا بأن الله الذي خلقهم، {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ}، فلمّا صح اعترافهم وبخهم الله منكراً عليهم شركهم، {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ}، فلمّا صح اعترافهم وبخهم الله تعالى بقوله: {قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ}، فلمّا فلما صح اعترافهم وبخهم الله ، {أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا}، فلمّا صح اعترافهم بذلك وبخهم الله ﷻ بقوله: {أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ}، وهكذا ينبغي أن تقرأ كل تقرير أن تنظر إلى مقدماته بالاعتراف، ونهاياته بالإنكار، ولذا وقع التوبيخ في حقهم، فهؤلاء قوم لا عقول لهم، الله ﷻ خيره نازل إليك، رحمته أنت محتف بها، ربّاك، وغذّاك، وأطعمك، وهداك، وجعل لك الطريق للهداية سبحان الله !، الهداية أمرها بالاختيار، الإنسان يحاسب عليها، لذا السعيد في هذه الحياة من كان عبداً لله بالاختيار، كما أنه عبد لله بالاضطرار، أنت عبد لله شئت أم أبيت، فهل تستطيع الطير؟! أنت تحكمك قوانين، تحكمك سنن وضعها الله ﷻ ، فأنت عبد لله مضطر لهذه السنن، لاتستغني عن الطعام ولا الشراب، فإذا كنت سعيداً تلجأ إلى الله مختاراً ، فتجمع في حقك الاضطرار والاختيار، فكما أني عبد لله بالاضطرار، أكون عبداً لله بالاختيار، ولكن لحكمة، العبادة بالاختيار هي مناط السؤال والجواب، السؤال والجواب يوم القيامة على ما أنت مختار فيه، الله لن يحاسبك لم أنت أندونيسي، ولم أنت عربي، ولمَ أجنبي، قصير، أبيض، أسود، هذا الأمر الله لا يحاسب عليه، هذه كلها بالاضطرار، فأنت لا تحاسب عليها، أما ما كان منك باختيارك، فحينئذ: {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ}، إما الإيمان وإما الكفر، هذا الذي أنت تحاسب عليه بين يدي الله سبحانه وتعالى .

قراءة الطالب: قال المصنف -رحمه الله- والملك هو الآمر الناهي، الذى لا يخلق خلقا بمقتضى ربوبيته ويتركهم سدى معطلين لا يؤمرون، ولا ينهون، ولا يثابون، ولا يعاقبون، فإن الملك هو الآمر الناهي، المعطي المانع، الضار النافع، المثيب المعاقب؛ ولذلك جاءت الاستعاذة فى سورة الناس وسورة الفلق بالأسماء الحسنى الثلاثة: الرب والملك والإله، فإنه لما قال:{ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ} كان فيه إثبات أنه خالقهم وفاطرهم، فبقى أن يقال :لما خلقهم هل كلفهم وأمرهم ونهاهم؟ قيل :نعم، فجاء {مَلِكِ النَّاسِ}، فأثبت الخلق والأمر {أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ}، فلما قيل ذلك، قيل: فإذا كان ربا موجدا وملكا مكلّفا، فهل يُحب ويُرغب إليه، ويكون التوجه إليه غاية الخلق والأمر؟ قيل: { إِلَهِ النَّاسِ}،أي مألوههم ومحبوبهم الذى لا يُتوجه العبد المخلوق المكلّف العابد إلا له، فجاءت الإلهية خاتمة وغاية، وما قبلها كالتوطئة لها، وهاتان السورتان أعظم عوذة فى القرآن، وجاءت الاستعاذة بهما وقت الحاجة إلى ذلك، حين سحر النبى ﷺ، وخيّل له أنه يفعل الشىء وما فعله ، وأقام على ذلك أربعين يوما كما في الصحيح ، وكانت عقد السحر إحدى عشرة عقدة، فأنزل الله المعوذتين إحدى عشرة آية، فانحلت بكل آية عقدة ، وتعلقت الاستعاذة في أوائل القرآن باسمه الإله، وهو المعبود وحده لاجتماع صفات الكمال فيه، ومناجاة العبد لهذا الإله الكامل ذي الأسماء الحسنى والصفات العليا المرغوب إليه في أن يعيذ عبده الذى يناجيه بكلامه من الشيطان الحائل بينه وبين مناجاة ربه" :

الشيخ -حفظه الله-: أيضا إلزام آخر،{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ۞مَلِكِ النَّاسِ۞إِلَهِ النَّاسِ} وهذا الإلزام ساقه المصنف، ليبين أن الإنسان الذي يعترف بأن الله رب الناس، وأنه ملك الناس، يجب عليه أن يعترف بأن الله إله الناس، فهو إلزام بعلاقة ظاهرة بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية،

ثم تكلم عن المعوذتين، ولنا إن شاء الله تعالى في درسنا القادم تفصيل، وشرح لمثل هذا الكلام، أسأل الله جل في علاه التوفيق، كما قال في هذا الكلام: "فجاءت الإلهية خاتمة وغاية" وما قبلها من إيش؟ الربوبية والمِلك، والملك توطئة، يريد أن يقول أن رب الناس وملك الناس توطئة، للوصول إلى إله الناس، فالله الملك، فالملك لا معنى لاسمه إن لم يأمر وينهى، فالله الرب، هو الله الملك، ويقول الله ﷻ :{وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ}، فكل رسول أرسله الله للخلق ليطاع، ومعنى طاعة الرسول، أن يمتثل الناس الأوامر فعلاً، والنواهي اجتنابا، هذه طاعة الرسول، فالرسول مبلغ، فالله الرب، والله الإله، والله الملك، وهل يكون هذا الملك الذي يأمر وينهى، يُحَب وتتوجه القلوب إليه؟ نعم .

إخواني أختم درسي بقولي: العقول السوية، والفطر المستقيمة، تعرف الله جل في علاه، ولو جمعت العقول كلها، وخصصت عقول أذكى الخلق، فإنهم لا يعرفون ماذا يريد الله، هل العقل يمكن أن يعرف أن الله يحب خمس صلوات، وكل صلاة لها عدد من الركعات، لو أن العقل سألته بعد تعب يقول تصلي العشاء ركعتين وتصلي الفجر أربع ركعات، آخر الصلاة، في أي صلاة؟ آخر صلاة هي الفجر، والصلاة الأولى أي صلاة؟ الظهر، والحديث عند الدارقطني الصلاة الأولى الظهر، في العقل وقت التعب تصلي ركعتين!، وفي الشرع تصلي أربع ركعات، العقل لا يعرف الصلاة، العقلاء لوجمعتهم وقلت لهم كيف نتقرب إلى الله؟ ما يستطيع العقل أن يعرف!، يستطيع أن يعرف الصلاة بقراءات معينة، وركوع، وسجود، وأذكار معينة، وأقوال وأفعال متتابعة مأثورة عن النبي ﷺ، العقول لا تعرف، فالله يُحب ويُرغب إليه؟ نعم ، كيف الله يحب ويرغب اليه؟ الله أذن لعباده أن يعرفوه، وأن يتألهوا إليه ويعبدوه، ويعبدوه بالطريقة التي أوحاها إلى أنبيائه، ولذا البشرية بحاجة النبوة، حاجة البشرية للنبوة حاجة المضطر لماذا؟ حتى

يُحقق أن الله إله بمعنى أن الله معبود، بأن الله محبوب، بأن الله مرغوب، فالله جل في علاه ﷻ ، من أعظم نعمه على عباده أنه أذن لهم أن يعرفوه، هذه النعمة ما بعدها من نعمة، أنت يا مسكين ! أنت يافقير، أنت يا من خلقت من نطفة، وتمشي، وتموت وأنت جيفة نتنة، أنت يا أيها المسكين، الله جل في علاه أذن أن تعرفه، وأذن لك أن تتقرب إليه، وأن تعبده بالطريقة التي يريدها هو ﷻ.

في أواخر كتاب المصنف كلام بديع للغاية، في أن الله تعالى في تقريره أن الله إنما خلق الخلق ليعبدوه، {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}، قال غير واحد من السلف أي: يوحدون، فلنا في درسنا القادم إن شاء الله تفصيل هذا الإجمال، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.